

هذه ملامح عامة ، غير مستقصية ولا مطنبة ، لجوانب من شعر الحنين ، ونلمح معها أنه لم يبدأ إلا بعد القرن العاشر الميلادي ، حين انصهر الأندلس في دولة ، ونما إحساس الناس بالوطن على مهل ، وهو شعر نظائره قليلة في المشرق . ولافت للنظر أيضاً أن العرب أو البربر الذين جاءوا إلى الأندلس واستقروا فيه ، لا نعرف لهم حتى ولا في الأعوام الأولى ، خارج التشبيهات المطروقة تجيء عرضاً ، شعرا يخنون فيه إلى أيامهم الأولى ، في مهابطهم التي قدموا منها ، هناك في شمال إفريقية ، أو مصر . أو الشام ، أو العراق ، أو الجزيرة العربية . ولا أعرف غير مقطعات ثلاث للأمير عبد الرحمن الداخل ، ومنها ما ينسب لغيره ، وجاءت كل واحدة منها في أربعة أبيات ، يتشوق إلى معاهد الشام في مقطوعة ، ويناجي نخلة في اثنتين ، وهو استثناء يدعم القاعدة ولا ينقضها ، فقد جاء عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس مكتمل الوجدان والدوق ، ورأى نفسه وباعترافه غريباً على أرض الأندلس ، وما كان ممكناً أن يتأسى هنا عن أمسه هناك ، فقد خلف وراءه خلافة عظيمة انتزعت من بيتهم ، وانتهى به المطاف أميراً على مقاطعة من مقاطعات الخلافة ، محدودة المساحة والقدرة والمجد ، صنعها بيده ، وظلت مجهولة القدر والمصير حتى آخر أيامه ، فهي لا تعوضه ولا تنسيه أجدادهم هناك .

وقد تولد عن جمال الأندلس في جملته ، وحب الناس له في عاقبتهم وارتباطهم به وطناً حين يقيمون عليه ، واحتفاظهم له بذكرى حنون حين يفارقونه ، أن بكاءهم عليه ، حين يعرض له مكروه ، يُجئء حاراً صادقاً ومن أبعاد أغوار النفس . ويمكن أن نجمل المكاره التي تعاورت الأندلس في هذا الجمال في ألوان ثلاثة : مدن خربتها الثورات والفتن ، وملوك أزاحهم المسلمون أنفسهم ، وبلاد استولت عليها النصارى ، ولكل لون شعراؤه وطابع بكائه ، وكانت قرطبة عاصمة الخلافة ، وجوهرة مدن الأندلس ، أول مدينة أتت عليها الثورة ، وامتدت بها أعواما ، وشاركت فيها كل الجماهير .

○ بكاء قرطبة :

حين تولى عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر الحجابة بعد أبيه ، واتخذ اسم المظفر